فصل

[اعتراض على أن تنزيل الوجود منزلة العدم وعكسه ليس من حديث التشبيه]

إن قال قائل: إن تنزيل الوجود منزلة العدم أو العدم منزلة الوجود ليس من حديث التشبيه في شيء لأن التشبيه أن يثبت لهذا معنى من معاني ذاك أو حكماً من أحكامه، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد، وللحجة حكم النور في أنك تفصل بها بين الحق والباطل كما تفصل بالنور بين الأشياء. وإذا قلت في الرجل القليل المعاني: هو معدوم أو قلت: هو والعدم سواء فلست تأخذ له شبهاً من شيء ولكنك تنفيه وتبطل وجوده كما أنك إذا قلت: ليس هو بشيء أو ليس برجل كان كذلك. وكما لا يسمى أحد نحو قولنا «ليس بشيء» تشبيهاً، كذلك ينبغي أن لا يكون قولك وأنت تقلل الشيء أخبرت عنه «معدوم» تشبيهاً. وكذلك إذا جعلت المعدوم موجوداً، كقولك مثلاً للمال يذهب ويفني ويثمر صاحبه ذكراً جميلاً وثناء حسناً «إنه باق لك موجود» لم يكن ذلك تشبيهاً بل إنكاراً لقول من نفى عنه الوجود، حتى كأنك تقول عينه باقية كما كانت: وإنما استبدل بصورة صورة فصار جمالاً، بعد ما كان مالاً، ومكارم، بعد أن كان دراهم. وإذا ثبت هذا في نفس الوجود والعدم ثبت في كل ما كان على طريق تنزيل الصفة الموجودة كأنها غير موجودة، نحو ما ذكرت من جعل الموت عبارة عن الجهل فلم يكن ذلك تشبيهاً لأنه إذا كان لا يراد بجعل الجاهل ميتاً إلا نفي الحياة عنه مبالغة ونفي العلم والتمييز والإحساس الذي لا يكون إلا مع الحياة كان محصوله أنك لم تعتد بحياته، وترك الاعتداد بالصفة لا يكون تشبيهاً إنما هو نفي لها وإنكار لقول من أثبتها.

فالجواب: أن الأمر كما ذكرت، ولكن تتبعت فيما وضعته ظاهر الحال ونظرت إلى قولهم «موجود كالمعدوم، وشيء كلا شيء، ووجود شبيه بالعدم» فإن أبيت أن تعمل على هذا الظاهر لم أضايق فيه إلا أن من حقك أن تعلم أنه لا غنى بك عن حفظ الترتيب الذي رتبته في إعطاء المعقول اسم معقول آخر، أعني لا بد من أن تعلم أنه يجيء على طريقين. أحدهما: تنزيل الوجود منزلة العدم كما مضى من أن جعل الموت عبارة عن الجهل وإيقاع اسمه عليه يرجع إلى تنزيل حياته الموجودة كأنها معدومة. والثاني: أن لا يكون هذا المعنى ولكن على أن لأحد المعنيين شبهاً بالآخر، نحو أن السؤال يشبه في كراهته وصعوبته على نفس الحر: الموت.

واعلم أني ذكرت لك في تمثيل هذه الأصول الواضح الظاهر، القريب المتناول، الكائن من قبيل المتعارف في كل لسان، وما تجد اعترافاً به وموافقة عليه من كل إنسان، أو ما يشابه هذاا لحد ويشاكله، ويداخل هذا الضرب ويشاركه، ولم أذكر ما يدق ويغمض، ويلطف ويغرب، وما هو من الأسرار التي أثارتها الصنعة، وغاصت عليها فكرة الأفراد من ذوي البراعة في الشعر، لأن القصد إذا كان لتمهيد الأساس، ووضع قواعد للقياس، كان الأولى أن يعمد إلى ما هو أظهر وأجلى من الأمثلة لتكون الحجة بها عامة، لا يصرف وجهها بحال، والشهادة تامة لا تجد من السامعين غير قبول وإقبال، حتى إذا تمهدت القواعد، وأحكمت العرى والمعاقد، أخذ حينئذ في تتبع ما اخترعته القرائح، وعمد إلى حل المشكلات عن ثقة بأن هيئت المفاتح.

هذا، وفي الاستعارة بعد من جهة القوانين والأصول شغل الفكر، ومذهب القول، وخفايا ولطائف تبرز من حجبها بالرفق، والتدريج والتلطف والتأني. ولكني أظن أن الصواب أن أنقل الكلام إلى القول على التشبيه والتمثيل وحقيقتهما، والمراد منهما، خصوصاً في كلام من يتكلم على الشعر، ونتعرف: أهما متساويان في المعنى أو مختلفان؟ أم جنسهما واحد إلا أن أحدهما أخص من الآخر؟ وأنا أضع لك جملة من القول نبين بها هذه الأمور.

التشبيه والتمثيل

التشبيه وأقسامه

اعلم أن الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين أحدهما: أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج فيه إلى تأول.

والآخر: أن يكون الشبه محصلاً بضرب من التأول. فمثال الأول تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل، نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة في وجه وبالحلقة في وجه آخر. وكالتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخدود بالورد، والشعر بالليل، والوجه بالنهار. وتشبيه سقط النار[1] بعين الديك، وما جرى في هذا الطريق، أو جمع الصورة واللون كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنثور، والنرجس بمداهن[2] در حشوهن عقيق. وكذلك التشبيه من جهة الهيئة، نحو أنه مستو منتصب مديد، كتشبيه القامة بالرمح، والقد اللطيف بالغصن. ويدخل في الهيئة حل الحركات في أجسامها كتشبيه الذاهب على الاستقامة بالسهم السديد، ومن تأخذه الأريحية فيهتز بالغصن تحت البارح[3] ونحو ذلك. وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس نحو تشبيهك صوت بعض الأشياء

---

(1) السقط ـ مثلثة والكسر أشهر ـ ما يسقط بين الزندين عند القدح. وزاد بعضهم: قبل استحكام الورى.

(2) المداهن ـ جمع مدهن ـ بضمتين وهو ما يجعل فيه الدهن ووزنه شاذ والقياس الكسر، لأنه من أسماء الآلة.

(3) الأريحية بسكون الراء: حالة يرتاح معها إلى البذل، والبارح: الريح الشديدة.

بصوت غيره، كتشبيه أطيط الرحل بأصوات الفراريج، كما قال:

كأن أصوات من إيغالهن بنا أواخر الميس إيقاض الفراريج[1]

تقدير البيت: كأن أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من إيغالهن بنا، ثم فصل بين المضاف والمضاف إليه بقوله «من إيغالهن» وكتشبيه صريف أنياب البعير بصياح البوازي، كما قال:

كأن على أنيابها كل سحرة صياح البوازي من صريف اللوائك[2]

وأشباه ذلك من الأصوات المشبهة له. وكتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل والسكر، وتشبيه اللين الناعم بالخز والخشن بالمسح[3]، أو رائحة بعض الرياحين برائحة الكافور أو رائحة بعضها ببعض كما لا يخفى، وهكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة والذئب في النكر. والأخلاق كلها تدخل في الغريزة نحو السخاء والكرم واللؤم. وكذلك تشبيه الرجل بالرجل في الشدة والقوة وما يتصل بها.

فالشبه في هذا كله بيّن لا يجري فيه التأول ولا يفتقر إليه في تحصيله، وأي تأول يجري في مشابهة الخد للورد في الحمرة وأنت تراها ههنا كما تراها هناك؟ وكذلك تعلم الشجاعة في الأسد كما تعلمها في الرجل.

ـ ومثال الثاني وهو الشبه الذي يحصل بضرب من التأول ـ كقولك: هذه حجة كالشمس في الظهور، وقد شبهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها كما شبهت فيما مضى الشيء بالشيء، من جهة ما أردت من لون أو صورة أو غيرهما، إلا أنك تعلم أن هذا التشبيه لا يتم لك إلا بتأول. وذلك أن تقول

---

(1) الميس: شجرة تتخذ منه الرحال للينه وقوته ويطلق على الرحال نفسها وهو المراد هنا.

(2) السحرة ـ بالضم ـ: السحر الأعلى وهو ما قبل انصداع الفجر، والسحر الآخر عند انصداعه، واللوائك: المواضغ جمع لائكة اسم فاعل مؤنث من اللوك وهو المضغ أو أهونه كمضغ البعير.

(3) المسح ـ بالكسر ـ البلاس وهو ثوب من الشعر غليظ كما في التهذيب (ش) وجمع المسح مسوح كحمل وحمول، والبلاس بالفتح فارسي معرب. ويتخذ بساطاً وكساء.

حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام أن لا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبين رؤيتها، ولذلك يظهر الشيء لك ولا يظهر لك إذا كنت من وراء حجاب أو لم يكن بينك وبينه ذلك الحجاب.

ثم يقول: إن الشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول، لأنها تمنع القلب رؤية ما هي شبهة فيه، كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه. ولذلك توصف الشبهة بأنها اعترضت دون الذي يروم القلب إدراكه، ويصرف فكره للوصول إليه من صحة حكم أو فساده، فإذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجة على صحة ما أدى من الحكم. قيل: هذا ظاهر كالشمس، أي ليس ههنا مانع عن العلم به، ولا للتوقف والشك فيه مساغ، وأن المنكر له إما مدخول في عقله أو جاحد مباهت ومسرف في العناد، كما أن الشمس الطالعة لا يشك فيها ذو بصر ولا ينكرها إلا من لا عذر له في إنكاره. فقد احتجت في تحصيل الشبه الذي أثبته بين الحجة والشمس إلى مثل هذا التأويل كما ترى.

ثم إن ما طريقه التأول يتفاوت تفاوتاً شديداً. فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه ويعطي المقادة طوعاً، حتى إنه يكاد يداخل الضرب الأول الذي ليس من التأول في شيء، وهوما ذكرته لك. ومنه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمل، ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج في استخراجه إلى فضل رواية ولطف فكرة.

فمما يشبه الذي بدأت به في قرب المأخذ وسهولة المأتى قولهم في صفة الكلام: ألفاظه كالماء في السلاسة، وكالنسيم في الرقة، وكالعسل في الحلاوة. يريدون أن اللفظ لا يستغلق ولا يشتبه معناه، ولا يصعب الوقوف عليه، وليس هو بغريب وحشي يستنكره لكونه غير مألوف، أو ما ليس في حروفه تكرير وتنافر، يكد اللسان من أجلهما[1] فصارت لذلك كالماء الذي يسوغ في الحلق، والنسيم الذي يسري في البدن ويتخلل المسالك اللطيفة منه، ويهدي إلى القلب روحاً

(1) الكد: الإتعاب، ويقال: كد لسانه تجوزاً، كما في الأساس.

ويوجد في الصدر انشراحاً، ويفيد النفس نشاطاً، وكالعسل الذي يلذ طعمه، وتهش النفس له، ويميل الطبع إليه، ويحب وروده عليه. فهذا كله تأول ورد شيء إلى شيء يضرب من التلطف، وهو أدخل قليلاً في حقيقة التأول، وأقوى حالاً في الحاجة إليه من تشبيه الحجة بالشمس.

[التشبيه الذي يحتاج إلى التأويل]

وأما ما تقوى فيه الحاجة إلى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع، فنحو قول كعب الأشقري، وقد أوفده المهلب على الحجاج فوصف له بنيه وذكر مكانهم من الفضل والبأس، فسأله في آخر القصة. قال: فكيف كان بنو المهلب فيهم[1]؟ قال: كانوا حماة السرح نهاراً، فإذا أليلوا ففرسان البيات[2]. قال: فأيهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها[3]. فهذا كما ترى ظاهر الأمر في فقره إلى فضل الرفق به والنظر، ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة. وليس كذلك تشبيه الحجة بالشمس، فإنه كالمشترك البين الاشتراك، حتى يستوي في معرفته الليب اليقظ والمضعوف المغفل.

وهكذا تشبيه الألفاظ بما ذكرت قد تجده في كلام العامي. فأما ما كان مذهبه في اللطف مذهب قوله «هم كالحلقة» فلا تراه إلا في الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء وذوي العقول الكاملة.

---

(1) أي في القوم المحاربين.

(2) السرح: المال السائم من الأنعام. وأليلوا ـ كأكرموا ـ دخلوا في الليل، والبيات: الهجوم على العدو ليلاً. قال شيخنا: أي يقطنون لا يطرقهم طارق إلا كانوا على صهوات خيولهم لملاقاته وأنهم يتبعون العدو ليلاً فيفجعونه ا هـ.

(3) هذا المثل من كلام فاطمة بنت الخرشب ـ بضم فسكون فضم ـ الأنمارية إحدى المنجبات في الجاهلية وهي أم الكماة من بني عبس: الربيع وعمارة وأنس الفوارس وإخوتهم. سألها أبو سفيان حين قدمت عليه مكة حاجة في الجاهلية «أي بنيك أفضل؟» فقالت: الربيع لا بل عمارة لا بل أنس الفوارس، ثكلتهم إن كنت أدري أيهم أفضل، هم كالحلقة المفرغة... الخ. فقد أخذه كعب الأشقري ووصف به بني المهلب.

الفرق بين التشبيه والتمثيل

وإذ قد عرفت الفرق بين الضربين، فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلاً. فأنت تقول في قول قيس بن الخطيم:

وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى كعنقود مُلاحِيَّةً حين نوَّرا[1]

إنه تشبيه حسن. ولا تقول هو تمثيل، وكذلك تقول: ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها، لأنك تعني تشبيهه المبصرات بعضها ببعض، وكل ما لا يوجد التشبيه فيه من طريق التأول، كقوله:

كأن عيون النرجس الغض حولها مداهن دُرّ حشوهن عقيق

وقوله:

وأرى الثريا في السماء كأنها قدم تبدد من ثياب حداد

وقوله:

وتروم الثريا في الغروب مرامها
كانكباب طِمِرّ كاد يلقى اللجاما[2]

وقوله:

---

(1) الملاحي ـ بضم الميم وتشديد اللام وتخفيفها ـ عنب أبيض طويل، ونور الزرع تنويراً: أدرك، والتمر خلق فيه النوى.

(2) الطمر ـ بكسرتين وراء مشددة ـ: الفرس الجواد أو المستعد للوثب والعدو.

قد انقضت دولة الصيام وقد ... بشر سقم الهلال بالعيد
يتلو الثريا كفاغر شره ... يفتح فاه لأكل عنقود

وقوله:

لما تعرى أفق الضياء ... مثل ابتسام الشفة اللمياء
وشمِطت ذوائب الظلماء ... قُدنا لعين الوحش والظباء
داهية محذورة اللقاء ... ويعرف الزجر من الدعاء
بإذن ساقطة الأرجاء ... كورد السوسنة الشهباء[1]
ذا برثن كمِثقب الحذّاء ... ومقلة قليلة الأقذاء
* صافية كقطرة من ماء *[2]

(1) في رواية: الشهلاء، بدل الشهباء.

(2) هذا ما وجد في الكتاب باتفاق النسختين، والذي في ديوان ابن المعتز بعد قوله «داهية محذورة اللقاء» هو:

شائلة كالعقرب الحمراء ... مرهفة مطلقة الأحشاء كمدة من قلم سوداء
أو هدبة من طرف الرداء ... تحملها أجنة الهواء تستلب الخطو بلا إبطاء
تمشي الانكب في الرمضاء ... أسرع من جفن إلى إغضاء ومخطفاً موثق الأعضاء
خالفها بجلدة بيضاء ... كأثر الشهاب في الماء

وللكلام تتمة أيضاً بعدما أورده المصنف وهي:

ينساب بين أكم الصحراء ... مثل انسياب حية رقطاء آنس بين الصفح والفضاء
سرب ظباء رتع الأطلاء ... في عازب منور خلاء أحوى كبطن الحية الخضراء
فيه كنقش الحية الرقشاء ... كأنها ضفائر الشمطاء يصطاد قبل الأين والعناء
خمين لا تنقص في الإحصاء

الرجز في الصيد ووصف كلبة وكلب من جوارحه واللمياء السمراء، أو اللعساء أي الموشومة. وقوله «وشمطت» الخ الشمط محركة: اختلاط الشعر الأسود والأبيض، يريد أول ظهور نور الفجر في ظلمة الليل ـ وقدنا بوزن قلنا ـ من القود والقيادة، والعين بكسر العين جمع أعين وهو اسم لثور بقر الوحش غلب عليه لاتساع عينه وسوادها والأنثى عيناء. وقوله «داهية» شروع في وصف الكلبة، والشائلة التي تشول بذنبها أي ترفعه والعقرب شائلة دائماً، والناقة الشائل والشائلة: ما أتى على حبلها أو وضعها سبعة أشهر

وما كان من هذا الجنس ولا تريد، نحو قوله[1]:

اصبر على مضض الحسو د فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

وذلك أن إحسانه في النوع الأول أكثر، وهو به أشهر. وكل ما لا يصح أن يسمى تمثيلاً فلفظ المثل لا يستعمل فيه أيضاً فلا يقال: ابن المعتز حسن الأمثال تريد به نحو الأبيات التي قدمتها، وإنما يقال صالح بن عبد القدوس كثير الأمثال في شعره يراد نحو قوله:

وإن من أدبته في الصبا كالعود يسقي الماء في غرسه
حتى تراه مورقاً نادراً بعد الذي أبصرت من يبسه

وما أشبهه مما الشبه فيه من قبيل ما يجري فيه التأول، ولكن إن قلت في قول ابن المعتز:

فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

إنه تمثيل، فمثل الذي قلت ينبغي أن يقال، لأن تشبيه الحسود إذا صبر عليه وسكت عنه وترك غيظه يتردد فيه بالنار التي لا تمدُّ بالحطب حتى يأكل بعضها

فارتفع ضرعها وخف لبنها. وقوله تمشي الأنكب أي تتمشى تمشي الانكب ـ وهو البعير ذو النكب ـ وهو بالتحريك الظلع في المشية وقيل عنه داء الظلع. وهكذا تمشي الكلاب السلوقية وهذا الوصف لا ينافي السرعة فيه.

وقوله «ومخطفاً» شروع في وصف الكلب وهو بضم الميم وفتح الطاء: منطوي الأحشاء. وموثق الأعضاء بالتشديد: محكمها. وخالفها أي خالف الكلبة. ومثقب الحذاء: الإسكاف، معروف. وآنس: أبصر، الرتع جمع الراتع، أي الراعية، والأطلاء جمع طلي بالفتح وهو ولد الظبي ساعة يولد والعازب الكلأ في فلاة لا زرع فيها ولا تصل إليه الماشية وأراد مكانه، والمنور اسم فاعل من نور الزرع بمعنى أدرك، والأحوى: الضارب إلى السواد من شدة خضرته وكذا الأحمر الضارب إلى السواد. والأين: الإعياء.

(1) «وما كان» الخ عطف على «تشبيهه المبصرات، وكل ما لا يوجد الخ» في ص 80 وقوله «ولا تريد»... الخ عطف على «تعني تشبيهه قبله. أعني أن هذا المعطوف على الفعل «تعني» وما قبله معطوف على مفعوله.

بعضاً مما حاجته إلى التأول ظاهرة بينة.

فقد تبين بهذه الجملة وجه الفرق بين التشبيه والتمثيل. وفي تتبع ما أجملت من أمرهما وسلوك طريق التحقيق فيهما ضرب من القول ينشط له من يأنس بالحقائق.